١
أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية

إدوارد سعيد

القضية الفلسطينية والمجتمع الأميركي

مؤسسة
الدراسات
الفلسطينية

القضية الفلسطينية والمجتمع الأميركي

إدوارد سعيد

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الطبعة الاولى ، بيروت — ١٩٨٠

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
شارع انيس النصولي — متفرع من شارع فردان
بيروت — لبنان . تلفون : ٣١٩٦٢٧
برقيا : دراسات . ص . ب . ٧١٦٤ — ١١

ترتكز هذه الدراسة على محاضرة ألقاها الاستاذ الدكتور ادوارد سعيد في سياق سلسلة المحاضرات والندوات التي قدمها خلال وجوده كزائر باحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في شهري تموز وآب (يوليو وأغسطس) ١٩٧٩ . وقد اتيحت للمؤسسة فرصة دعوة الدكتور سعيد بفضل المنحة التي تلقتها من جامعة قطر لدعوة باحثين زائرين . ويسر المؤسسة ان تعرب عن تقديرها الخالص لمؤازرة جامعة قطر في تنفيذ هذا البرنامج .

لا اذكر مرحلة في التاريخ العربي الحديث شهدت ما يشهده تاريخ العرب اليوم من الاهتمام الواسع المستمر اللاهث بالولايات المتحدة الاميركية . ولا شك في ان خلف هذا الاهتمام حقيقة لا جدال فيها ، وهي ان اميركا والمصالح الاميركية تمس حياة العرب وتقتحمها بصورة مباشرة . وقد برزت اميركا في الاشهر الاخيرة قوة خارجية يشعر المجتمع العربي والدول العربية ، بل حتى الشعوب العربية ، بأن عليهم ان يواجهوها . ومع ذلك ، ارى ان هذا التقدير لاهمية اميركا كثيرا ما يتخذ شكل ردة فعل مبالغ فيها ، تنبع – في اعتقادي – من افتقاد التحليل والدراسة الجادين لما آل اليه حال المجتمع الاميركي ، ولاتجاه مساره ، وللدور الذي يستطيع – أو لا يستطيع – ان يقوم به في مجال السياسة الخارجية . ان اية دولة لا تستطيع تلقائيا ان تكون قوة لسبب واحد او غيره ، حتى اذا كانت قوة امبريالية عظيمة مثل اميركا . بكلمات اخرى ، ان اميركا هي مجتمع له تاريخه الخاص ومؤسساته الخاصة ، وكذلك له قواه وتشكيلاته الاجتماعية والثقافية ، وهذه كلها مجتمعة تؤثر في العالم وتعمل فيه بطرق عديدة مختلفة ، كثيرا ما تكون محيرة ومتناقضة .

ان هذه الملاحظات تهدف الى تفسير اميركا اليوم من حيث تأثيرها في اكثر مشكلاتنا

إلحاحا ، وهي قضية فلسطين . وكل ما سأقوله سيكون ، بالضرورة ، تبسيطا لواقع الولايات المتحدة المعقد للغاية – لكنني مع ذلك آمل ان تنجلي بوضوح وبدقة النقاط الرئيسية التي سأثيرها . وانني لأنطلق من مفهوم اساسي وهو انه اذا شئنا ان نفهم ما تعنيه اميركا والسياسة الاميركية الآن بالنسبة الى القضية الفلسطينية – بل بالنسبة الى العالم العربي اجمع – فانه يتعين علينا ان نعرف كيف نحلل اميركا بمصطلحات ادق وأرهف حسا من تلك التي اعتدناها . ولا اقصد بهذا ان نمتنع من استخدام مصطلحات مثل : « اللوبي الصهيوني » او « اللوبي العربي » او « المصالح الاميركية » ، بل ان نستخدم هذه المصطلحات في سياق متحرر نسبيا من الكليشيهات ، اذ ان هذه كثيرا ما تحكي عنا وعن تخيلاتنا اكثر مما تحكي عن الموضوع الذي نحاول وصفه . بكلمات اخرى ، سأحاول ان اعرض الموضوع الذي بين يديّ بشكل تفسيري ، مما يخولني من بعد ان اصدر حكمي من وجهة نظر ملتزم مؤمن بصدق القضية الفلسطينية وعدالتها وانتصارها المحتم .

ان كل تحليل جاد يجب ان ينطلق من الاسئلة الصحيحة . وفيما يتعلق باطار الرؤية (المجتمع) الاميركي ، اعتقد ان علينا ألا نطرح مسألة فلسطين ضمن اطار ما يقوم به اللوبي العربي او اللوبي الصهيوني ، بل ضمن الاطار الاهم والاكثر خطورة ، وهو المجتمع الاميركي ذاته . ان اللوبي الصهيوني – في رأيي – هو ظاهرة ثانوية ، وينطبق ذلك ايضا على اللوبي العربي في اقل تقدير ، وان نجاحهما او اخفاقهما رهن بمدى تعاملهما مع ما يوفره المجتمع الاميركي لهما ؛ والى ان نأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار ، سوف نظل نتوقع اكثر مما يجب من هاتين المجموعتين ، ونعزو اليهما اكثر مما يجب ايضا ، وما دام الامر كذلك ، فلن اصرف وقتا كثيرا في الحديث عنهما . وكل ما اود قوله الآن هو انهما لا يتعديان ان يكونا ، من حيث الاهمية او الخطورة ، تسلية أو إلهاء سطحيا ، في العالم الثقافي السياسي للحياة الاميركية . فالحياة تسير ، والعمل يتم ، والقرارات تتخذ في مجالات النشاط الانساني الكثيرة ، وضمن هذه المجالات لا قيمة كبيرة للوبي – ايا كانت انتماءاته – وتلك قضية سأعود اليها فيما بعد .

واذا كان الامر كذلك ، فما هو الاهم اذن ؟ علينا هنا ان نبدي بعض الملاحظات ونشير الى بعض الفروقات الاولية . فهناك – من جهة – المجتمع السياسي الاميركي الذي تجسده الدولة وتحتويه ، ومن جهة اخرى هناك المجتمع المدني الاميركي الذي يتجسد في جميع المؤسسات الخاصة نسبيا ، مثل : العائلة والدين والمدارس والجامعات

ووسائل الانتاج والثقافة ، الخ ... وفي اعتقادي ، ان من المهم للغاية فهم امرين عن المجتمع الاميركي المدني والسياسي : الاول ، ان قوة الامة لا تنبع من الحكومة المركزية او من حكومات الولايات بصفتها حكومات من نوع ما ، وانما تنبع من مؤسساتها المدنية . وهذا امر ينطبق على الدول الصناعية الغربية بعامة ، وأعني ان دولا مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة لا يحكمها جهاز الحكومة المركزية ولا يسيطر عليها مباشرة ، اذ انها ليست مجتمعات قمعية او عسكرية ، وانما هي مجتمعات يدور فيها جانب كبير من النشاط خارج السيطرة المباشرة للدولة او للمجتمع السياسي . فالثقافة الاميركية مثلا لا تديرها الحكومة ، وكذلك الحال بالنسبة الى معظم الجامعات ؛ وان ما يعطي المجتمع الاميركي اليوم هويته الذاتية المتميزة ليس جيشه ولا رئيسه ، وانما نسيج المصالح والمؤسسات التي ينتجها القطاع الخاص ، وهو ما اطلقت عليه اسم المجتمع المدني .

ولا شك في ان المجتمعين السياسي والمدني متداخلان الى درجة كبيرة . لكن الحقيقة هي ان ايا منهما لا يعمل ببساطة او وفقا لمرسوم دكتاتوري . ان اميركا ، شأنها شأن جميع الدول ، يتولى امرها جهاز حاكم ، يتميز أفراده في حالات كثيرة عن المحكومين ، الخ ... ويحتكر الفرع التنفيذي للمجتمع السياسي – ورمزه برئيس الجمهورية – اسميا السلطات القائمة على الاكراه ، وهذا بدوره ينتج سمة ظاهرة في المجتمع السياسي يمكن ان نسميها التسلط ، اذ هناك قوانين مفروضة وقوات امن (الشرطة والجيش وامثالهما) وبيروقراطية حكومية واسعة . غير ان هذا كله لا يشكل – بأي حال من الاحوال – الجانب الرئيسي من الحياة الاميركية ؛ فان التأثير المتنامي بل الحاسم الذي يهيئه المجتمع المدني – وهو مجتمع يحكم بالتوافق العقلاني – يقوم بدور اكثر اهمية من الدور الذي يقوم به الحكم القائم على السيطرة . لكن هذا لا يعني ابدا ان في استطاعة المرء في المجتمع المدني ان يتولى ما يشاء تقريبا او ان يفعل ما يشاء او حتى ان يفكر فيما يشاء ، اذ هناك افكار معينة وجماعات معينة (مثلا : ما يسمى المؤسسة القائمة "The Establishment") لها تقدم وسيطرة على جماعات وأفكار اخرى ، وهي تتمتع بنفوذ اكثر من نفوذها ، بل تقوم بتنظيمها تنظيما يتفق ورغباتها . وهذا النمط من الحكم او السيطرة هو ما يمكن ان نسميه : **الهيمنة** .

والملاحظة الثانية هي ان اعتبار المجتمع السياسي – او الدولة – معبرا عن اميركا بمجملها ، هو اعتبار صحيح ، لكن الى حد ما فحسب . اذ هناك مصالح وتقاليد

وأشخاص ومؤسسات تعتمد الدولة عليها ، وتعمل بانسجام معها . كما ان هناك – في الوقت ذاته – تقاليد ومؤسسات وأشخاصا ومصالح تقف من الدولة موقف المعارض . ومن الامثلة لذلك : قيام الجامعات كافة ، في أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، باثارة المجتمع المدني الاميركي ضد المجتمع السياسي الاميركي ، كما كان هذا المجتمع الاخير يعبر عن نفسه في فييتنام . فانطلاقا من ذلك ، علينا اذن ان نمتلك القدرة على تحليل نقاط التوتر والانسجام بين الدولة الاميركية والمجتمع المدني الاميركي ، كما هي الآن بالنسبة الى المشكلة الفلسطينية . وعندما ننتهي من هذه المهمة ، يصبح في امكاننا ان نمضي قدما فنقوّم بعض الامور : ما الذي يجب ان نتوقعه او نفعله ، وما الذي يجب أن نعارضه او نؤيده ؟ وان لعلينا قبل كل شيء ، كما آمل ان ابين من بعد – فلسطينيين او اميركيين يؤيدون النضال الفلسطيني من اجل حق تقرير المصير – ان نعرف على اي شيء نشدد ، وفي اي مكان نخوض معاركنا ، وأين نضع ثقتنا .

وعلى المرء ان يقول ، بادىء ذي بدء : ان الدولة الاميركية – والمجتمع السياسي الممثل بالدولة – هي في جوهرها ، فيما يختص بالعالم خارجها ، دولة امبريالية لا يماثل سجلها في العنف والدمار سجل اية دولة اخرى في التاريخ البشري ، وتلك مسألة لا جدال فيها . صحيح ان العالم يفيض بالمساهمات الاميركية في قضايا السلام والوفاق الدولي والتعليم والنشاطات العلمية والخيرية ، ومن يستطيع ان ينكر الاهمية البناءة ، لجماعات مثل : لجنة خدمات الاصدقاء الاميركيين (American Friends Service Committee) ، وعصبة مقاومي الحرب (War Resisters League) ، في نضالاتها لمصلحة السلام؟ او لاشخاص مثل نوعام تشومسكي؟ او لاكتشافات كاللقاح ضد شلل الاطفال؟ ان هناك امورا قيمة كثيرة كهذه يجدر التنويه بها ، إلا ان السجل الاميركي – على وجه الاجمال – حافل بالتدخلات المتواصلة بشكل لا يعرف الكلل . وهذا وضع وصفه والتر لافيبير مؤخرا ، فقال :

> يمكن للمرء ان يرى التاريخ الاميركي لا من خلال المنظور الضيق لمفاهيم التخوم المتلاشية والديمقراطية الناشئة ، والموارد الهائلة التي خلقت « شعب الوفرة » فحسب ، بل من خلال تلك السياسة الدؤوبة القائمة على التدخل ، المؤثرة في تشكيل حياة الشعوب الاخرى . لقد سعى الاميركيون ، منذ نشأتهم ، للاستقلال ولأمن لا يمكن اكتسابه إلا بتحقيق ما اسماه المؤسسون الاوائل : « الامبراطورية » . وقد انطوت العملية على استخدام

> وسائل متعددة ، ولم يعترها الوهن لان الولايات المتحدة ظلت تتدخل [في شؤون الدول الاخرى] في نطاق القارة [الاميركية] ، ثم في نطاق العالم كله .[١]

وليس هناك دولة في التاريخ – حتى بين الدول الدكتاتورية الفاشية العسكرية – يضم سجلها الخارجي [ما يضمه سجل الولايات المتحدة] من عدد القنابل التي ألقيت على مدنيين ابرياء ، ومن البلاد التي دمرت ، ومن الانظمة الاستبدادية اليمينية التي اقيمت ودُعمت ، ومن الدول التي « أُخل باستقرارها » على حد تعبير هنري كيسنجر . حتى ونحن هنا في لبنان ، يمكننا ان « نشكر » الدولة الاميركية مباشرة وغير مباشرة على القنابل والجنود والطائرات والدعم السياسي الضمني المستخدم لتدمير جنوبي لبنان . تأملوا انه خلال الحرب العالمية الثانية كلها ألقت الولايات المتحدة ١٨٠ ألف طن من القنابل على اليابان ، لكنها في خلال نحو ستة اشهر في أواسط السبعينات ، ألقت ٥٣٩ ألف طن على دولة كمبوديا الصغيرة وحدها ، كل ذلك كي « تنقذها من الشيوعية » . وألقت على فييتنام ٤ ملايين طن من القنابل خلال تسعة أعوام .

ولا يزال الطاقم [القديم] نفسه من مخططي السياسة يتمتع بنفوذ كبير في المجتمع السياسي الاميركي اليوم ، وهو الطاقم الذي صمم تدمير الهند الصينية ونفذه ، وخطط سقوط سلفادور إلليندي ، وضمن بقاء دكتاتوريات او انظمة ظالمة في ايران ونيكاراغوا وباكستان وتشيلي والارجنتين وباراغواي والبرازيل واثيوبيا وجنوب افريقيا واسرائيل وروديسيا . ان كيسنجر ، الذي زور الحقيقة وأساء استعمالها بشكل يندر ان يوازى ، لا يزال يُعتبر من جانب الجيش ووزارة الخارجية والفرع التنفيذي رجلا ثقة يجب الاصغاء اليه . ان الاشخاص والمؤسسات الذين خططوا لتدمير الهند الصينية هم نفسهم يتحدثون الآن عن التخطيط للتدخل في الشرق الاوسط . وعلينا ان نتذكر انه على الرغم من ان كارتر ليس نيكسون ، وبريجنسكي ليس كيسنجر ، فان الرئاسة الاميركية ومجلس الامن القومي هما المسؤولان عن اختراع ما اسماه نيكسون : « نظرية الرجل المجنون الحربية » سنة ١٩٧٠ ؛ وهي نظرية تبلغ من عدم التصديق مبلغا يصيب العقل باللوثة . وبناء على هذه النظرية ، قامت الولايات المتحدة بتهديد خصومها بالتصرف بشكل لاعقلاني ، فلا يجرؤ احد من بعد على الاستخفاف بتهديدات الحرب المجنونة التي تطلقها ؛ وهكذا ،

---

١ Walter La Feber, "American Intervention through History: Empire Begins at Home", *The Nation*, 228, 22 (June 9, 1979), 656.

فانه عندما هدد نيكسون وكيسنجر بقصف يمسح كمبوديا ولاوس وفييتنام – وهو امر لم تكن له ضرورة عسكرية – لم يكن الهدف من تهديدهما مجرد تدمير تلك الدول ، بل تحذير العالم ان الولايات المتحدة – بقوتها المخيفة – قادرة على ابادة خصومها بصورة لاعقلانية ، اي من دون مسوّغ عسكري كاف . ولقد كانت مأساة البشرية طبعا هي ان نظرية الرجل المجنون الحربية وضعت موضع التطبيق ، ودفع مجتمع الهند الصينية ثمنها باهظا : معاناة وعنفا وخسارة بشرية محضة بشكل لا مثيل له .[٢] ان المرء يرتجف عندما يفكر فيما يكمن خلف التهديدات الاميركية الاخيرة بالتدخل عسكريا في منطقة الخليج .

وتقف الولايات المتحدة اليوم في آسيا خلف مجموعة من الانظمة القمعية العميلة ، وتدعمها من دون قيد او شرط تقريبا . ومن بين هذه الانظمة : كوريا الجنوبية والفيليبين وأندونيسيا واسرائيل . لنتأمل ، مثلا ، انه خلال السنوات الخمس الماضية تقريبا قتل ١٥٠ ألف شخص بوحشية في تيمور الشرقية ، على يد نظام تدعمه الولايات المتحدة ضمنا ، وتمده بالمعدات العسكرية . لقد قصفت اسرائيل الفلسطينيين واللبنانيين من دون ان تتقدم الولايات المتحدة إلا بشكاوى مسالمة للغاية ليس لها وزن سياسي يذكر . وتلك حقيقة تصبح مرفوضة اكثر فأكثر عندما نلاحظ ان الولايات المتحدة تزود اسرائيل بكل دبابة وطائرة وصاروخ تستخدمه الآن تقريبا . ويزداد يوميا التناقض بين الاعلان النبيل بشأن دعم الولايات المتحدة لحقوق الانسان وبين دعمها الفعلي للقمع .[٣] وحيثما لا تزود الولايات المتحدة حكاما دكتاتوريين مثل : بينوشيه وسوموزا ، بمحققين من الشرطة ، فانها تقوم بتزويدهم بأسلحة لا حد لها . وحيثما ينظر المرء في العالم الثالث يجد أتباع الولايات المتحدة مثقلين بميزانيات تسلح لا تقدر عليها اية دولة ، ناهيك بالدول النامية الصغيرة – كل ذلك بقصد تعزيز المصالح الحكومية الاميركية . وعلينا ان نتذكر ايضا ان الولايات المتحدة – في سعيها وراء طموحاتها الجغرافية السياسية – قد احاطت العالم

٢ William Shawcross, *Side Show: Kissinger, Nixon and the Destruction of Cambodia* (New York: Simon and Schuster), pp. 90–91, 95, 260.

٣ انظر :

Noam Chomsky and Edward S. Herman, "The United States Versus Human Rights in the Third World", *Monthly Review,* 29, 3 (July-August 1977), 22–45.

بما لا يقل عن ٣٢٠٠ قاعدة عسكرية .

ومع ذلك ، فان الوجود الاميركي في العالم تاريخيا يختفي دائما وراء لغة الخير ومسوغاته ، وان لم يكن ممكنا ان يختفي وراء تحقيقه . لقد نشأ معظمنا مع الفكرة القائلة ان الولايات المتحدة تدعم الحرية في كل مكان لانها ارض الحرية ، هذا على الرغم من ان الولايات المتحدة – كما ذكرت منذ قليل – شاركت فعليا في تدمير دول مثل : كمبوديا ولاوس ، وهي تحتل المرتبة الاولى بين دول العالم في تجارة الاسلحة . ان التفاوت بين سياسة الولايات المتحدة وذلك الاحساس بالحنين اليها في جميع انحاء العالم ، تفاوت كبير جدا ، ومع ذلك فان كليهما قائم هنا في العالم العربي . وهذا وضع يمكن فهمه الى حد ما ، لان اميركا ظلت طوال قرنين على الاقل رمزا للملاذ والمثالية والانسانية . والسؤال المطروح امامنا هو : كيف نعدّل تلك الرغبة العجولة الجامحة في كسب الرضى الاميركي ، فنذهب [بدلا من ذلك] الى تقويم الامور بصورة ادق ونقرر ما يستحق رضانا ودعمنا الآن فعلا في اميركا ، ونقرر ايضا ما علينا ان نعارضه فيها بصدق وبأي ثمن؟ وللقيام بذلك ، علينا الآن ان نركز على السياسة الرسمية الاميركية في الشرق الاوسط ، ثم نرى كيف يفرز المجتمع المدني الاميركي سياسة كهذه ، وأخيرا نرى اين يوجد في المجتمع المدني الاميركي ما يمكن ان نقيم معه اتصالا ما بصدق وأصالة معا .

هناك اذن إلحاح خاص الآن لفهم حقيقة السياسة الاميركية – بل لرؤيتها ، اعني : الى اي مدى تملك الولايات المتحدة سياسة في الشرق الاوسط ، في وسط ارتباكها وعدم اتخاذها القرارات وتأرجحها بين اتخاذ قرار والتراجع عنه ، وهو امر يدعو للاسف اجمالا ؟ ان الصحف العربية ملآنة بأكثر التفاصيل تضليلا عن الولايات المتحدة . ويمكن للمرء – عندما يقرأ هذه الصحف – ان يخرج بسهولة بأحد انطباعين : إما ان الولايات المتحدة تسيطر عليها اساسا جماعة صغيرة من اليهود الاذكياء (وربما حتى مجموعة ذكية من ممولي وول ستريت) ، وإما ان الولايات المتحدة لا يكاد يُعبر عنها إلا ما قد يقوله – او لا يقوله – فانس او سوندرز او كارتر في يوم ما . والحقيقة هي طبعا ان كلتا وجهتي النظر تتميز بالبله والقصور الى درجة بعيدة . واذا كان هارولد سوندرز قد بدا في الاسبوع الماضي كأنه يشير الى ان الولايات المتحدة قد تبدأ الآن حوارا مع منظمة التحرير الفلسطينية – وهو احتمال ليس مستبعدا ابدا – فاني اعتقد ان علينا ان

ندرك ان مسألة بدء حوار مع المنظمة او عدم بدئه ليست بحد ذاتها امرا مهما ، تماما كما انه ليس مهما فعلا في مستقبل الايام ما اذا كان سوف يبدو تغير في سياسة الولايات المتحدة الرسمية تجاه القضية الفلسطينية . وعليّ ان استدرك هنا فأقول : انني لا اعني ابدا ان قيام حوار علني بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة ليس امرا حسنا او انه لا شك في انه سوف يكون كذلك ، ولكن علينا ألا ننسى ان تغيرات كهذه في سياسة الولايات المتحدة هي تغيرات سطحية ، والاهم منها في المدى البعيد هو طبيعة الولايات المتحدة الحقيقية كقوة كبرى ، والاتجاه الذي ستسمح لها مصالحها باتخاذه ، والقيود المحلية والعامة المفروضة على سياستها الخارجية ، وما يحكي لنا تاريخها ومؤسساتها عن علاقاتها حاضرا ومستقبلا بالعالم الثالث عامة ، وباسرائيل والفلسطينيين خاصة . بكلمات اخرى ، انني مهتم بصورة خاصة بعدم الاسهاب في الاسئلة المباشرة عن السياسة وتغيراتها – ففي النهاية ، من ذا الذي يملك عقلا سليما ويريد المغامرة بالتكهن بقضية متفجرة كتلك التي نعنى بها ؟ وانما يجب التركيز على المجتمع الاميركي الاوسع الذي تنظر منه اميركا الى قضية فلسطين وسوف تستمر تنظر اليها من خلاله على وجه الترجيح ، وذلك وفقا لتاريخها وطبيعة مجتمعها وضغوط ثقافتها على السياسة الخارجية . وتجدر الاشارة هنا ايضا الى انني عندما ابحث في هذه القضايا ، لا اقصد اطلاقا التلميح الى ان الولايات المتحدة ثابتة غير متغيرة ، وانما على العكس تماما : ان هدفي هو ابراز السمات الثابتة والمتطورة في المجتمع الاميركي في آن معا .

ومع اخذ هذه الاهداف الانتقادية المحددة بعين الاعتبار ، يمكننا فهم سياسة الولايات المتحدة الرسمية في الشرق الاوسط بصورة افضل . وليس من المبالغة القول ان ذهاب اميركا الى انشاء تحالفات عسكرية واقامتها بما يتعارض والتيارات الشعبية او القومية او كليهما معا ، يشكل القواعد الاساسية في هذه السياسة ، وهذا ارتداد فج نحو رؤية جون فوستر دالاس للعالم . وقد ادلى مساعد وزير الخارجية ، هارولد ه . سوندرز ، بأوضح بيان عن السياسة الاميركية الجارية وذلك في الثاني عشر من حزيران (يونيو) ١٩٧٨ في شهادته امام اللجنة الفرعية لاوروبا والشرق الاوسط التابعة لمجلس النواب ، فعدّد « لائحة المصالح الاساسية » بصورة عامة ، واعتبر انها تشتمل على رغبة الولايات المتحدة في منع النزاع ، و « الالتزام الذي لا رجوع عنه بأمن اسرائيل وقوتها وصالحها » ، والاعتراف بأهمية العالم العربي (وخصوصا « قوة الدول العربية

الرئيسية واعتدالها ») ، و « الالتزام الادبي والانساني تجاه شعب الشرق الاوسط للمساهمة في انهاء نزاع ادى الى جيل من المعاناة » . وقد حدد سوندرز – تمشيا مع هذه المصالح – اربع فرضيات للسياسة الاميركية ، هي :

اولا : السياسة القومية الوحيدة القابلة للتطبيق هي تلك التي تمكننا من السعي وراء جميع مصالحنا في آن واحد ، لان كلا من مصالحنا في الشرق الاوسط مهم . . .

ثانيا : ان تجربة السنوات الاربع الماضية قد اظهرت انه يمكن ان نتابع السعي وراء جميع هذه المصالح في آن واحد وبأفضل صورة ، عندما يكون هناك تقدم نحو تسوية سلمية للنزاع العربي – الاسرائيلي . . .

ثالثا : لقد حدث تحول مهم باتجاه الغرب في العلاقات بين دول الشرق الاوسط الاساسية والقوى الكبرى خارج الشرق الاوسط خلال السنوات الماضية . [وهنا ذكر سوندرز نهاية تنامي النفوذ السوفياتي في المنطقة ، وادراك دول الشرق الاوسط انها تفضل « الغرب (الذي) يقدم التكنولوجيا والمهارات الادارية اللازمة لتطوير هذه الدول » – ومضى ينقل نقطة لا تقل اهمية عما ذكر ، وهي ان « الزعماء العرب المعتدلين تحولوا الى الولايات المتحدة بحثا عن التعاون لتحقيق السلام والتنمية ، وان نجاحهم سوف يحد من دور القوى الراديكالية »] . . .

رابعا : ان اي تجديد للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ، بصورة جادة ، الأبعاد الجديدة لعلاقات الولايات المتحدة الاقتصادية بالمنطقة ، من دون اغفال لاي من التزاماتنا الاخرى بأي شكل من الاشكال .

وفي فقرة لاحقة اكد سوندرز في شهادته ان الولايات المتحدة اتبعت سياسة ، بعد زيارة السادات ، تقضي بتحويل الولايات المتحدة الى شيء اكثر من « ساعي بريد بين الجانبين » . ولقد شكلت ثلاث قضايا – هي طبيعة السلام ، والانسحاب الاسرائيلي ، و« الاجراءات الامنية التي سترافق الانسحاب» ، اضافة الى «دور الفلسطينيين» – بؤرة المباحثات الاميركية مع اسرائيل ومصر والاردن وسورية ولبنان والسعودية ، على الرغم من انه كان للولايات المتحدة نقاط اتفاق وخلاف مهمة بشأن هذه القضايا مع كل من الدول العربية واسرائيل . وفي نقطة معينة كان سوندرز صريحا قاطعا (او على الاقل بدا كذلك) اذ قال [للطرفين] : « ان مستقبل الضفة الغربية وغزة يكمن في رأينا في ارتباط وثيق مع الاردن ، وان [اقامة] دولة فلسطينية مستقلة تكن مشاعر تحررية وحدوية

في هذه المنطقة المبتورة لن تكون حلا واقعيا او دائما » .

ان شهادة سوندرز بأكملها تنتظم حول مبدأ « السلام والاعتدال » ، وهي جملة يقصد منها بوضوح استبعاد المبادىء الباهتة مثل : « الراديكالية » والقومية ، كما يقصد منها معارضة الوضع الراهن العسكري والاجتماعي والاقتصادي . وأعتقد ان الاهم من ذلك هو وجهة النظر القائلة ان اي نزاع – عادل او غير عادل ، منطقي او غير منطقي ، حقيقي او غير حقيقي – يسيء الى الولايات المتحدة ، ما دام المهم بالنسبة اليها هو عدم حدوث اي تغيير ، وامكان الوصول الى نفط الشرق الاوسط وسوق الاستهلاك الواسعة للشركات الاميركية ، والصلات الثنائية بين حكومة الولايات المتحدة وكل نظام « معتدل » رئيسي في الشرق الاوسط . وهكذا ، كان من الضروري تخفيض حدة النزاع العربي – الاسرائيلي ، لا عن طريق مواجهة المشكلات التي نشأ عنها هذا النزاع بل – بكل بساطة – بواسطة وضع الولايات المتحدة في مركز الامور [في قلبها] ، واذا امكن في اثناء هذه العملية حل القضايا الاقليمية والعسكرية والدبلوماسية ، كان ذلك افضل . ان هذا هو بوضوح ما تهدف اليه المعاهدة المصرية – الاسرائيلية ، اضافة الى [رغبتها في] اعطاء الولايات المتحدة ما اسماه سوندرز : « حضورا قوميا – وليس حكوميا فقط » . إلا ان الاولوية المطلقة كانت من نصيب اقامة تقارب عسكري يكون في مصلحة الولايات المتحدة ، وذلك تقارب لا يرضي اطلاقا الراديكاليين والقوميين والحركات الشعبية التي ترى الامور بصورة مختلفة . والنتيجة النهائية هي ان مصر واسرائيل اصبحتا ، في مقابل اذعانهما ، عميلين معتمدين تماما على صناعة الاسلحة الاميركية .

ولنوضح المصالح السياسية الاميركية بشكل اكثر تفصيلا ، اذ ذاك نرى انه تكمن وراء اهمية النفط والقضايا الجغرافية السياسية ارادة لا تبغي مجرد معارضة القومية الراديكالية (وهو ما لا يصرح به اطلاقا) ، وانما التماثل مع خصوم تلك القومية المنطقيين ، ومن ثم اعلان العداء الاميركي غير المشروط للقوى التي تعارض – مثل الحركة الفلسطينية – حليفا للولايات المتحدة . بل اكثر من ذلك : ان الولايات المتحدة تعتبر نفسها ، وبصورة فعالة ، مناوئا لاية محاولة لتغيير الانظمة العميلة (مهما تكن قمعية او غير ذات شعبية) على الرغم من الاهتمام الرسمي بحقوق الانسان وما يرافقه من صخب اعلامي .

وفي ايران لم يكن هذا يعني وقوف الولايات المتحدة في صف الشاه فحسب ، بل كان يعني ايضا تزويد الجيش الايراني بالنفط خلال كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ ، بعد ان

غادر الشاه البلاد ، املا في ان يتمكن الجيش من القيام بانقلاب ضد القوى المساندة للخميني ؛ وكان يعني – كذلك – المضي قدما في معاهدة سلام اسرائيلية – مصرية منفردة في وجه معارضة اردنية وسعودية وكويتية ؛ وكان يعني – ايضا – الاستمرار في تحالف المصالح الاميركية مع انظمة معزولة قمعية ، كانت مزاياها الاساسية تكمن – كما في حالتي اسرائيل ومصر – في كونها راغبة في تلقي الاسلحة الاميركية والقروض وذلك النوع من الخبرة والتقنية الذي يؤدي الى المزيد من تحويل الاغلبية العظمى من السكان الى مجرد اجهزة تتلقى الاخبار (كالترانزستور) في الوقت الذي يزداد فيه جهلها السياسي ، وفي حين ان مصالح [اغلبية السكان] لا يمكن ان تحققها امتيازات استيراد الدجاج كنتكي (Kentucky fried chicken) والكوكا كولا والسيارات المصنوعة في ديترويت وفنادق ماريوت . وفي مقابل كل برهان ثابت لاخفاق هذه السياسة – من فييتنام وكمبوديا ، الى ايران ، الى اثيوبيا ، الى افغانستان ، الى باكستان ، الى نيكاراغوا – كان الالتزام بها يتجدد ويصبح اكثر حزما – وتكلفة ايضا ، وكأن الولايات المتحدة تملك قدرة لا حد لها على الادمان المتجدد على نماذج مخفقة لمخفقين مثل : الشاه وهيلاسيلاسي .

والصحيح انه ما دام للولايات المتحدة زبائن متلهفون مثل : السادات وبيغن ، تبقى السياسة [الاميركية] الرسمية توضع لمصلحتهم ، بما لا يقبل اية مقاومة . لكن المرء يتساءل مرة اخرى : ما هي الدروس المستخلصة من ايران ، حيث برهنت بلايين الدولارات والاسلحة الاميركية والعديد من التصريحات الحارة بشأن دعم الشاه (وأجهزة استخباراته وشرطته) عن الاخفاق في انقاذ العرش من معارضة شعبية غير مسلحة في جوهرها . لعل ما استخلص من الدروس يتجسد مباشرة في المعاهدة الاسرائيلية – المصرية ، حيث تجعل الولايات المتحدة نفسها واحدة من تلك الحكومات المحلية ، بل قد تحل محلها ؛ تلك الحكومات التي تعلن صراحة انها على استعداد لخوض الحرب من اجل التمسك بموارد اقتصادية يملكها آخرون ، ولمهاجمة اية حركة غير خاضعة مباشرة لافكار مستوردة ، ولتعليق الصالح العام على ما تستبق الولايات المتحدة حدوثه او عدم حدوثه من جانب الاتحاد السوفياتي . لكن الصعوبة الحقيقية في تحليل ، بل في تحديد عيوب رؤى هذه السياسة القمعية في اساسها ضمن المجتمع الحالي ، هي ان وسائل الاعلام الاميركية ، ومعظم الانتلجنسيا الليبرالية التي تحثها حكومة تحصل على خدمة مجانية لمصالحها ، قد احتفظت بمصطلحات السلام والاعتدال والتحديث والتطوير ،

لتصف بها الاستراتيجيات الخاصة للولايات المتحدة وحلفائها ، بل ان معلقين شديدي الاستقلالية في آرائهم ، مثل أ . ف . ستون ، وجدوا صعوبة في مقاومة الترتيبات التي وضعت في كامب ديفيد ، ووجدوا صعوبة اكبر في تحاشي التحدث عن الرئيس كارتر سوى بصفته بطلا ملحميا .[٤] وقد مضى معلقون ليبراليون آخرون يجادلون بشأن فكرة كامب ديفيد بعد ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ – وكان انتوني لويس متحمسا بصورة خاصة لهذه النقطة – قائلين ان كامب ديفيد – كما كان يوصف عادة – « هو كل ما لدينا » ، وبالتالي فان اية افكار اخرى عن السلام في الشرق الاوسط هي بالضرورة عنيفة مفسدة مؤذية . بدا لهؤلاء الاشخاص ان الاتفاقية بين بيغن والسادات كانت خطوة الى الامام : ألا تعني ايضا ، كما قالوا ، انه لن تكون هناك حرب بين اسرائيل وأكبر دولة عربية وأكثرها بأسا ؟ ألا تعني ايضا ان اولئك العرب الآخرين الذين عارضوا كامب ديفيد هم معادون لاميركا ومعادون للسلام ومعادون للسامية ؟ ثم – والاحسن من هذا كله – أليس صحيحا انه للمرة الاولى كان هناك اتفاق دولي علني بشأن وجود القضية الفلسطينية ، وحتى بشأن طريقة تسويتها ؟ ألم يتميز كامب ديفيد بفضيلة اضافية هي استبعاد الشيوعية وتأمين السلام والازدهار للعرب الطيبين (منتجي النفط) ؟ ألن تكون الحقيقة الآن هي ان في استطاعة العرب واليهود اخيرا ، البدء ببناء مجتمعات جديدة تقدمية مزدهرة برعاية اميركية بدلا من تكريس طاقاتهم لحرب لا ثمرة منها ؟

وبرز الآن سؤال عن السبب الذي جعل المجتمع المدني الاميركي ، في هذه الحالة ، يتعاون بهذه الطواعية مع المجتمع السياسي الاميركي في دعم اتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة الاسرائيلية – المصرية من دون معارضة كبيرة . ولماذا تبنى عدد قليل جدا من المثقفين قضية الحقوق الفلسطينية ، في الوقت الذي يجد فيه معظم المثقفين ان من الطبيعي مهاجمة التسوية الروديسية الداخلية ، او تجاوزات النظام التشيلي ؟ ولعل من الافضل والاوضح طرح السؤال بصورة اكثر تفصيلا . انه لصحيح – كما اعتقد – ان هناك احساسا منتشرا الى حد ما داخل المجتمع الاميركي بأن الفلسطينيين موجودون شعبا وقضية ، وذلك للمرة الاولى منذ بدأ الاستعمار الصهيوني في فلسطين يجذب انتباه الغرب . وللمرة الاولى ايضا كان للشعب الفلسطيني منظمة سياسية تمثله بصدق هي منظمة التحرير الفلسطينية ؛

٤ I. F. Stone, "The Case for Camp David", *New York Review of Books*, October 28, 1978.

وقد فرضت هذه المنظمة بقاعدتها الشعبية ، في كل مكان في الاوساط الفلسطينية ، اعتراف العالم بالمشكلة الفلسطينية . ولم يحدث قط ان تحدث رئيس اميركي عن الحاجة الى وطن فلسطيني ؛ ولم يحدث قط ان تحدث اميركيون ليبراليون بارزون من المؤسسة القائمة ، مثل : جورج بول وستانلي هوفمان ، لمصلحة حق تقرير المصير الفلسطيني ؛ ولم يحدث قط ان تحدث بالاجماع مسؤولون بارزون في الحكومة عن بروز مكانة منظمة التحرير الفلسطينية ، وعن رئيسها ، وعن أهدافها . ولكن هنا يطرح السؤال : لماذا لا تعلن الدولة الاميركية انها تقف الى جانب حق الفلسطينيين في تقرير المصير ، ولماذا لا تترجم هذه التعبيرات غير الحكومية والمتداولة بكثرة عن تأييد منظمة التحرير الفلسطينية وحق الفلسطينيين في تقرير المصير الى سياسة ؟ وحتى لو اتبعت الدولة سياسة رجعية امبريالية مدمنة على تأييد الاستبداد ، فلماذا لا يتغلب المجتمع المدني على المجتمع السياسي – كما فعل خلال حرب فييتنام – ويعكس توجه المعارضة الاميركية نحو [تأييد] حق الفلسطينيين في تقرير المصير ؟ هذا هو السؤال ، وللاجابة عنه يجب ان ننظر بدقة اكثر الى المجتمع المدني ، وقبل كل شيء الى الثقافة المعاصرة . وللاسف ، لا استطيع هنا ان احاول تحليل العوامل الاقتصادية التي تؤثر في هذه القضايا .

ان اسلوبا جيدا لفهم مجمل تعقيدات المجتمع المدني المعاصر هو تقسيم ميزاته الى فئتين :

١ – الميزات الناتجة عن تغير درامي قريب العهد .

٢ – الميزات التي تدوم على الرغم من التغيرات التي تحدث في اماكن اخرى من المجتمع .

ولنبحث الآن في هاتين الفئتين بالترتيب .

لا شك في ان الاجيال القادمة ستتفق على ان العقد السادس من هذا القرن كانت له اهمية غير عادية في تاريخ العالم . وكانت الستينات تعني طبعا في الحياة الاميركية ، الثقافية والسياسية ، الدمار الذي احدثته حرب فييتنام ، والفورات السقيمة العارمة في الوطن ، والنضالات الرئيسية والانجازات الهائلة لحركة الحقوق المدنية ، وهزيمة ليندون جونسون السياسية ، ونمو الوعي لنضالات التحرر الوطني في جميع ارجاء العالم بصورة غير عادية – وهو ما اعتبره الناس تحولا راديكاليا للضمير الاميركي . ولم تكن مصادفة طبعا ان يأتي الوعي للقضية الفلسطينية ولمنظمة التحرير الفلسطينية في الولايات المتحدة ، ضمن اطار

الرؤية (المجتمع) ذلك . وللمرة الاولى في تاريخ الولايات المتحدة ، امكن استيعاب النضالات الشعبية للتحرر الوطني في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية في قلب الحياة الثقافية الاميركية ، تماما كما اصبح – في الوقت نفسه – مجمل قضية التورط الاميركي في حرب بربرية آسيوية وحشية مدمرة ، قضية ملتهبة تحتل وضعا مركزيا في البلد . وأنا اشدد على ذكر المركز هنا لانني لا اعتقد ان في امكاننا فهم المجتمع الاميركي عامة ما لم نفهم ايضا ان التحرك السياسي والتغير السياسي الهائل المهم لا يأتيان إلا نتيجة ما يحدث في مركز الامة السياسي بقاعدته الجماهيرية . وفي تلك الحالات ، لم يكن مهما في البداية – كما في حالة المعارضة للحرب الفيتنامية – ان يكتب ضد هذه الحرب عدد قليل من النشيطين الجريئين المعادين لها ؛ فالمهم هو انه في نقطة ما ، وبصورة تكاد تكون فجائية ، في أواخر ١٩٦٧ وأوائل ١٩٦٨ ، انتقلت معارضة الحرب من هوامش الحياة الاميركية الى مركزها ، بين عمال الياقات البيض العاديين في اماكن مثل : انديانا ولويزيانا ، وفي الجامعات في كل مكان . وللمرة الاولى في تاريخ حافل بالحروب الخارجية والتدخلات الاستعمارية العدوانية المكشوفة غالبا ، اصبحت الولايات المتحدة مجتمعا تُبحث فيه بصورة مألوفة مسألة الحرب او السلام ، الامبريالية او اللاامبريالية . وضمن اطار الرؤية (المجتمع) هذا ايضا ، ظهر للمرة الاولى بعض الوعي للنضال الفلسطيني من اجل التحرر الوطني – هو وعي ضئيل يلقى معارضة شديدة ، لكنه يظل وعيا على الرغم من كل شيء . وظهر الفلسطيني وازداد قوة – مثله في ذلك مثل الاميركي الاسود والفلاح الفيتنامي والمقاتل الانغولي من اجل الحرية – بفضل ارتباطه في العقل الثقافي الشعبي بأولئك الضحايا الآخرين للامبريالية في العالم الثالث .

ان التغير الكبير في الثقافة الاميركية والسياسة الاميركية في السبعينات هو بروز جهد هائل عاقد العزم على نسيان الستينات . ان الاشمئزاز من الستينات هو احد اكثر التطورات الثقافية المقلقة في تاريخ المجتمعات الحديثة . وهو يتمثل في طرق كثيرة مختلفة ، كلها يكشف عن رغبة جماهيرية موازية للرغبة الحكومية ، في محو تاريخ الستينات ، بما يعنيه ذلك التاريخ من الحرب الفيتنامية وظهور القومية الراديكالية في الخارج [وما ادى اليه من] بروز بعض البرامج الاجتماعية التقدمية في الوطن . وفوق كل شيء بعض الوعي ، ليس للطريقة التي عالجت فيها قوة الولايات المتحدة بعنف كل ما اعترض طريقها فحسب ، بل بروز وعي متعاطف مع اولئك المواطنين المنسيين من غير البيض وغير الاوروبيين ،

من عالم ما بعد الاستعمار . وهناك تزامن مقلق في [قولين لجيمي كارتر : الاول قاله] خلال الجزء الاخير من حملته الانتخابية سنة ١٩٧٦ ، ومفاده ان اسرائيل لا تتحمل اية مسؤولية تجاه الفلسطينيين ؛ [والثاني] خلال العام الاول له في الادارة سنة ١٩٧٧ ، اذ اكد في اكثر من مناسبة ان الولايات المتحدة ليست مسؤولة عما فعلته لفييتنام الشمالية . ان كلا هذين التصريحين يمثل عملية محو للتاريخ ، وهي ممارسة اصبحت شائعة للغاية في كل مكان في المجتمع الاميركي اليوم . فاذا كانت الولايات المتحدة لا تتحمل اية مسؤولية تجاه حرب الابادة في الهند الصينية ، فان مشاق الحياة المخيفة في كمبوديا في ظل نظام بول بوت ، ستبدو – كما حدث فعلا – نتائج لا مسوغ لها للعقلية « الشيوعية » و « الشرقية » . وبالطريقة نفسها ، فان قراءة تسعين بالمئة من الاخبار عن لاجئي السفن الفييتناميين اليوم ، تعني عدم قراءة شيء عن الدمار الذي احدثته طائرات ب – ٥٢ الاميركية بصورة منتظمة في ثلاث دول في الهند الصينية خلال فترة عشر سنوات تقريبا ، وهو الامر الذي تسبب بخلق مشكلة لاجئي السفن اولئك . وبصورة مماثلة [ايضا] ، فان سماع المناقشات عن القضية الفلسطينية من قبل اشخاص مثل : سوندرز وأثرتون ، او ليبراليين مثل : جورج بول وأنتوني لويس ، يعني تصور الفلسطينيين – ببساطة – شعبا ظهر الى الوجود منذ عهد قريب الى حد ما ، وليس له تاريخ من الاقتلاع والتشرد والاضطهاد المستمر من جانب اسرائيل والصهيونية . ان اتفاقية كامب ديفيد ، بحد ذاتها ، نموذج مثالي على هذا الهروب من التاريخ – وهو الهروب الذي يميز السبعينات في اميركا ؛ فهل هناك من سبب آخر لعدم اشارة اية صحيفة او جماعة ، او اي كان – فيما عدا قلة من الافراد الشجعان – الى حقيقة ان غياب الفلسطينيين عن المداولات التي تزعم رغبتها في تقرير مصيرهم ، يعني ان القضية كلها ليست مجرد اعتداء على وجود الفلسطينيين الانساني ، وانما هي اعتداء على التاريخ نفسه ؟

وعليّ ان اطلب اليكم ألا تعتبروا هذا الاعتداء على التاريخ مؤامرة صهيونية اطلاقا ، وانما مؤامرة تساهم فيها الصهيونية بهروبها الازلي من الحقيقة والتاريخ معا . وهكذا ، بقدر ما يتعلق الامر بالفلسطينيين ، فان حقهم في تقرير مصيرهم الوطني يبدو الآن كأنه ليس نتيجة كفاحهم وانما ضمن اطار التبني الاميركي لمحاولة ايجاد حل لهم ، باعتبارهم مصدر ازعاج او باعتبارهم ارهابيين . وعندما قامت شركة اي . بي . سي . (ABC) في الربيع الفائت بعرض برنامج عن الفلسطينيين يدّعي بأنه يظهرهم كبشر ،

كان هذا البرنامج عبارة عن فيلم يظهر كيف ان الارهابيين الفلسطينيين هم بشر في نهاية المطاف. ولمزيد من الاهانة، فقد عرض البرنامج من دون اية تغطية من الاعلانات التجارية، وهاجمه الجميع بتهمة الدعاية لـلاسامية، حتى ان المذيع الخائف المتردد شعر بأن من الضروري عليه ان يعلن عدم ارتباطه بفيلمه، سياسيا او ادبيا او انسانيا. ان لاجئي الهند الصينية هم اليوم مجرد لاجئين بالدلالة نفسها؛ يجسدون وضعهم هذا من دون ارتباط بعشرات السنين من التدمير الامبريالي الذي ساقهم الى هذا الوضع المزري.

وفي آذار (مارس) الماضي، قرر مخزن بلومنغديلز تحويل المخزن الهائل بأكمله الى متحف لمدة اسبوع واحد، وذلك من اجل الاحتفال بشيء اسمه «اسرائيل – الحلم»، ولم يعتبر من الملائم تزيين المتجر بصور عن معالم «اسرائيلية» معروفة مثل: بيت لحم والمسجد الاقصى وحفنة من الفلاحين العرب فحسب، بل اعتبر ايضا تجربة تعليمية ان يعرض فيلم في الطابق الثالث بعنوان «كيف تمسك ارهابيا». وفي لحظات كهذه، يتساءل المرء عما اذا كان تسويق نضالنا بأسلوب تجاري فج، هو في النهاية افضل من الفساد الفكري والادبي الشامل الذي نجده لدى كتاب يفترض انهم مهمون مثل: سول بيلو (الذي فاز بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٧٦) والذي يختزل فهمه لكفاح الاميركي الاسود من اجل حقوقه المدنية – في رواية بيلو: «كوكب السيد ساملر» – الى صورة رجل اسود ضخم ينزع سرواله، ويستعرض عضوه التناسلي امام يهودي مرتعد المفاصل من الناجين من معسكرات الاعتقال النازية. وأود ان اقترح هنا ان صهيونية بيلو (كما يعبر عنها في ذلك التزييف المضحك للتاريخ والحقيقة السياسية الوارد في كتابه: «الى القدس ورجوعا») تندرج تحت الاتجاه الاميركي المنتشر في السبعينات، وهو محو التاريخ لمصلحة روايات خيالية ايديولوجية بتشكيلة مرفوضة بأنواعها كافة.

والى جانب الهرب من التاريخ، كانت هناك رغبة شبه شاملة [لدى الولايات المتحدة] في رؤية العالم جنة للمستهلك، بكل ما في الكلمة من معنى. ان النرجسية، كما يجادل كريستوفر لاش في كتاب ظهر حديثا، هي الميزة الاساسية والتشويه الخلقي الرئيسي في اميركا اليوم.[٥] ان العالم قائم من اجل لذتي، والناس موجودون لارضاء غروري، والتاريخ والسياسة والواقع، كل هذا تدخل لا يحتمل في حياتي الحالمة، ويجب عدم

٥ Christopher Lasch, *The Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations* (New York: Norton, 1978).

السماح لهذه الامور بتعقيد حياتي. ان الطلاب في حرم الجامعات اليوم – وهم الذين كانوا سابقا طليعة التغيير السياسي في البلاد – يميلون الى السلبية، وعقولهم مركزة على دراسات تؤدي الى مستقبل مهني، وآراءهم منسجمة تماما مع **الوضع القائم**. ويخضع المزيد والمزيد من الحياة الثقافية الاميركية لسيطرة وسائل الاعلام، ونظريات بافلوف السلوكية التي يستخدمها اصحاب وكالات الاعلان في جادة ماديسون بهدف التحكم في أذواق المستهلك وتصرفاته.[٦] وليس من قبيل المصادفة ان يكون احد اقرب مستشاري الرئيس كارتر وأكثرهم نفوذا هو جيرالد رافشون، وهو خبير سابق بوسائل الاعلام في شركة اعلانات كبرى.

ويزداد الاتجاه لدى الشركات العملاقة مثل: سي. بي. اس. (CBS) وآي. بي. ام. (IBM)، او اللوبيات السياسية المحازبة، الى شراء المزيد من ناشري الكتب والمجلات. وأصبحت الاخبار، بتعرضها لتشويه وسائل الاعلام – بسبب عامل الفورية والاجتزاء – هي مجرد ما يقوله والتر كرونكايت [مذيع تلفزيوني اميركي بارز] اكثر مما هي الحقيقة فعلا، الى حد ان الاميركي العادي يفقد ادراكه للمسارات التاريخية التي تؤدي الى الحقيقة الانسانية. وقد اصبحت وسائل الاعلام على درجة عظيمة من القوة، والالتزام بالحقيقة على درجة عظيمة من التحريف، الى حد ان كتابا صدر حديثا عن وسائل الاعلام (كتاب ديفيد هالبرستام: «القوى التي تفعل») جرؤ على القول ان المعارضة الاميركية للحرب في فييتنام – مثل اشمئزاز البلد من اعمال نيكسون الدنيئة في ووترغيت – كانت اساسا من انجازات وسائل الاعلام، وكأن الناس والسياسة ليسوا سوى ادوات تحركها شركة سي. بي. اس. او مجلة «تايم». وهكذا، يرى المرء الثقافة تعيد انتاج ذاتها كانعكاس فوق انعكاس، وهكذا الى ما لانهاية. ولا اظن ان من الضروري القول انه في هذه الاجواء على الاقل – اي الاجواء التي توفرها وسائل الاعلام، والاعلان المتواصل عن المنتوجات التجارية، وفي عُهر الركض وراء الشهرة بدلا من السعي وراء الحق والعدل – تبدو القضية الفلسطينية في صورة هزيلة، على الرغم من عدالة هذه القضية وانجازات شعبنا الحقيقية، اذ انه عندما نفكر – من الناحية الاخرى – في انه لكي تحظى القضية الفلسطينية بقبول وسائل الاعلام بطريقة سهلة يكون من الضروري ان نفكر ضمن واحد

٦ انظر:
Herbert I. Schiller, *The Mind Managers* (Boston: Beacon Press, 1973).

من اطارين : إما اخضاع القضية لبرنامج تجميلي يجعلها جذابة تجاريا ، وإما قبول تحدي نظام هائل ملتزم تقريبا بتدميرنا وهزيمته – فان ايا من الخيارين يثير المشكلات بشكل واضح ، وان بطريقتين مختلفتين .

وأكثر التغيرات الحديثة التي تثبط العزيمة في المجتمع الاميركي المعاصر ، يمكن ان تعتبر ايضا نوعا من التراجع عن الستينات – وأنا اشير هنا الى اخضاع الطبقة المفكرة في البلاد ، بصورة شبه شاملة ، لقواعد الثقافة السائدة ، وأُولاها وقبل كل شيء : السياسة الخارجية للدولة والسياسة الخارجية لعملائها . وأنا اتحدث الآن باعتباري فردا من هذه الطبقة ، وأتحدث ايضا بخجل من يعرف عمق الخيانة الفكرية التي تمت ؛ فهذه بحق خيانة معاصرة للعلماء على نطاق واسع . لقد اصبح معظم المثقفين التقليديين تقنوقراطيين وظيفيين ، يهتمون بحياكة اجواء من الغموض الايديولوجي وبتحسين اوضاعهم الذاتية اكثر من اهتمامهم بالحقيقة . ان الحرب الفييتنامية وردات الفعل الاخيرة عليها هي – مرة اخرى – مؤشرات جيدة على ما اقصد . فلنأخذ – من اجل التوضيح – ما حدث من ان الصحافة عرفت سنة ١٩٦٩ – ١٩٧٠ ان الولايات المتحدة كانت تقصف لاوس سرا ، لكنها تعمدت ألا تنشر الانباء عن ذلك القصف . وتظهر استطلاعات الرأي العام الاخيرة ان معارضة معظم المثقفين للحرب هذه تعتبر الآن – لدى اعادة النظر فيها – احد امرين : أ) إما انها حدثت لان الحرب كانت مخفقة بشكل واضح ؛ ب) وإما انها مبعث ندم الآن نظرا الى ما حدث في فييتنام منذ سنة ١٩٧٥ . وبكلمات اخرى ، ربما كانت الحرب غير عادلة ، لكن هذا ليس هو المهم ؛ المهم هو ان هذه الحرب كانت حربا خاسرة ، وان فييتنام ما بعد الحرب لم تتفتح فجأة لتصبح حديقة مزهرة . ولو كان الجنرالات او السياسيون الافجاج هم الذين اتخذوا موقفا كهذا ، لقلنا : حسنا ، هذا هو ما يعتقده الجنرالات والسياسيون دائما . لكنني اتحدث عن مثقفين يفترض ألا تصوغ اعمالَهم الفائدةُ المادية المباشرة او الشوفينية التافهة او المذهب الخلقي المتذبذب . ومع ذلك ، يقول كثيرون من هؤلاء المثقفين انفسهم الآن : ان كل ما تفعله الولايات المتحدة في العالم هو جزء من دفاعها عن اسلوب الحياة الغربي ، او – على حد تعبير سيئ الذكر ، دانييل باتريك موينهان الذي وضع الحقائق بشكل اكثر عدوانية – انه عرض عضلات اميركي ، لكي تفهم الدكتاتوريات الصغيرة الحمقاء في العالم غير الابيض ان ما تفعله الولايات المتحدة يتم برضى الله ، ولتذهب العدالة والحقيقة

والاخلاق الى الجحيم .

انني اذكر موينهان لا لأن العقل الفاسد العنصري الى هذا الحد مهم بذاته ، ولكن لانه وجماعته من المحافظين الجدد يتمتعون الآن بنفوذ مهم في المجتمع الاميركي . فمن دون ادنى معارضة جادة تقريبا ، يحبط هؤلاء الاشخاص برامج الدولة لقضايا الرفاه والانعاش داخل الوطن ، ويشيدون بمغامراتها خارجه . ان العنصر والعرق – وهما كلمتان ترمزان الى التعصب العنصري ضد السود والتأييد الاعمى للصهيونية – يتمتعان في برامجهم بأهمية اكثر كثيرا من قضايا الانعاش الاجتماعي والمساواة الاجتماعية . بل ان احدهم ، وهو دانييل بل ، ذهب الى حد الدعوة الى العودة الى الصلاة كوسيلة للخلاص من المأزق الاقتصادي والظلم الاجتماعي .

وضمن نطاق التأييد الفضفاض وغير المحقق اساسا ، الذي منحه الرئيس كارتر لحقوق الانسان ، اتخذ قادة البلد المثقفون مواقف قوية تدعو الى حقوق الانسان ، ولكن عندما كان الامر يتعلق بالاتحاد السوفياتي والدول الاخرى في الكتلة الاشتراكية وحدها ، في حين لم يذكر إلا عدد قليل منهم شيئا عن استبداد الشاه . ويرجع السبب في ذلك – جزئيا – الى ان الشاه كان حليفا للولايات المتحدة وحليفا لاسرائيل ايضا . أما فيما يتعلق بممارسات الاحتلال الاسرائيلي ، فيمكن ان يُعَد على اصابع اليدين وحدها عدد المثقفين الذين تبنوا مواقف صريحة تدين انتهاكات حقوق الانسان . وحتى عندما تكون الحقائق ناصعة تصفع الوجوه ، فان معظم المثقفين يرفضون ان يقولوا اي شيء ، لا لانهم يخشون ان يتهموا بمعاداة السامية – وسيلة للانتقام منهم – وانما لان المناخ السياسي بمجمله راكد ، خاضع لسياسة الدولة ، عار من اي اهتمام خلقي صادق . ولذلك ، ليس بمستغرب ألا يرتفع احتجاج علني كبير على خطط وزارة الدفاع – المؤازرة بدعاية جيدة – بشأن إعداد قوة للتدخل العسكري في الخليج . وليس بمستغرب ايضا ان قلة فحسب من الكتاب اهتموا بأن يقرأوا بأنفسهم – فضلا عن ان يدلوا برأيهم – الانباء التي نقلتها حتى الصحافة الاسرائيلية ، والتي تتحدث عن القصف الاسرائيلي المرعب في جنوبي لبنان وعن الرقابة الاسرائيلية على كل ما ينشر عن الضفة الغربية او عن التوقيف الاسرائيلي الاحترازي لآلاف الفلسطينيين . وهنا ، ايضا ، علينا ان نتمكن من ان نرى ان الصهيونية نفسها تشارك ببساطة في مادة ثقافية هيأها نيابة عنها حماتها [– اي حماة الصهيونية –] الغربيون الليبراليون .

والنقطة الاخيرة التي اود تسجيلها عن التغيرات الحديثة في الثقافة الاميركية ، تتعلق بما سمي ازمة السلطة ، وبما سمي ايضا ازمة الديمقراطية في تقرير صدر مؤخرا عن اللجنة الثلاثية .[٧] لقد كانت ووترغيت علامة على هذا كله ، كما كانت علامة على هذا خيانة المثقفين التي تحدثت عنها قبل قليل . ان المرء يلمس في المجتمع الاميركي خيبة امل عامة ناتجة عن الانخفاض الواضح في القوة الاميركية [من ناحية] ، والازدياد الواضح في تعقيد العالم فضلا عن الاعتماد المتبادل بين اطرافه [من ناحية اخرى] (وهو عالم لا يستطيع فيه المستهلك الاميركي ، مثلا ، ان يملأ خزان سيارته بسهولة وبرخص) ، بالاضافة الى الاخفاق لدى قيادة البلد في التجاوب مع الازمات الاقتصادية والاجتماعية والدولية بشكل يتفق مع ما يتوقع من القوة الاميركية (ربما عن غير حق) من سرعة ووضوح . ان اوضح الرموز لأزمة السلطة – ومن بعض النواحي اكثرها حدة – هو الرئيس الاميركي نفسه ؛ انه رجل محاط بالنوايا الطيبة ، لكن نواياه متناقضة عادة ، وهو غير واثق مما يجب ان يقوله ، وبالتالي فانه غالبا ما يفيض بالكلام حين يجب الاختصار ، ويختصر في الكلام عندما يكون عليه ان يفيض ، وتتشابك في عقله اساليب مدير فاشل نسبيا في الازمات مع التعاليم الصارمة بالمفارقات التاريخية بشكل ميؤوس منه لمسيحي متجدد ؛ انه رجل توجد في رأسه – كما قال جيمس فالوز ، وهو كاتب خطاباته سابقا – خمسون فكرة جيدة لا تخضع لمخطط واضح ولا تفاوت بينها مبنيا على الاولوية . ولم يحدث من قبل ، في تاريخ الولايات المتحدة الحديث ، ان واجهت اميركا العالم بثقة اقل من الآن . وكل هذا يزيد ليس في احتمالات التآمر على العالم الثالث فحسب ، بل ايضا في الهجمات اللامعقولة والمرتبكة على العالم الثالث . ان الامل في حل لمشكلة الشرق الاوسط ، او افتراض ان الولايات المتحدة تملك ٩٩٪ من الاوراق – كما عبر عن ذلك الرئيس المصري الجامح بكلماته المأثورة – يعني رفع الولايات المتحدة الى مكانة شاهقة ، والاسوأ من ذلك [ما يرافق ذلك من] الحط من قدر العرب كثيرا .

هذه اذن هي الحقائق الثقافية الجديدة التي تشكل اطار الرؤية (المجتمع) الاميركي . ويمكن هنا ان تذكر بعض الحقائق الثابتة . فما زال هناك عداء ثقافي واسع الانتشار

٧ Michael Crozier, Samuel P. Huntington, Joji Watanuki, *The Crisis of Democracy: Report on the Governability of Democracies of the Trilateral Commission* (New York: New York University Press, 1975).

للشرق [عامة] وللعرب والاسلام خاصة . وفي رأيي : ان هذا العداء ليس سوى نسخة اخرى عن اللاسامية الغربية ، وهي حركة جذورها قديمة عميقة للغاية ، وقد وضعت هذا الامر في مكان آخر باسم ثقافة الاستشراق ؛[٨] وهي ثقافة حولت اشكالها المعاصرة العرب إما الى مزودين للنفط ، وإما الى ارهابيين عطشين الى الدماء ، كما هي الحال بالنسبة الى الفلسطينيين . والمظهر الاكثر تعبيرا عن هذه القضية ، هو ان الاغلبية العظمى من اولئك الاميركيين المرتبطين عمليا بالتدريس عن العرب او التعامل التجاري معهم ، سواء داخل الجامعات او خارجها ، لا تشكل في رأيي ، ولن تشكل اطلاقا ، جوقة مسموعة تؤيد الكفاح الوطني العربي ؛ اذ هي ايضا مستشرقة ، والشعور الطبيعي بالنسبة اليها تجاه العرب – او تجاه الفيتناميين ايضا – هو الشعور بالكراهية والتنافر العنصري . بل على العكس من ذلك : ان التأييد الاميركي للصهيونية ، مهما يمكن ان يخفي هو ايضا من شعور كامن باللاسامية ، انما هو دعم ايجابي لسياسة استعمارية غربية لا يمكن التشكيك في اهدافها النبيلة ، وهي سياسة الاستيطان في ارض صحراوية ، وخلق مؤسسات حديثة ، وحل المشكلات التقنية بكفاءة وبصورة تثير الاعجاب بحسب افضل التقاليد الغربية . وليس عبثا ان عبَّر ليبراليون اميركيون محترمون من غير اليهود ، مثل : ادموند ويلسون ورينولد نيبور – كما لا يزال يفعل ورثتهم الليبراليون اليوم – عن استحسان كامل للصهيونية ، وهو امر يرتبط في اذهانهم إما بالآباء المؤسسين الاميركيين البيوريتانيين ، وإما بالمقاتلين المخلصين من اجل الحرية والمعادين للشيوعية .*

لكن هذا ليس كل شيء . وهنا اصل الى ما قد يكون اكثر المقاطع تفاؤلا في تحليلي للمجتمع المدني الاميركي المعاصر . انني اود التأكيد على هذا الجانب من المجتمع المدني الاميركي ، لانه المكان الذي يجب ان نضع ثقتنا فيه في نهاية المطاف . وهو ، قبل كل شيء ، ذلك الموقع في الحياة الاميركية الذي يجب ان نكرس له جهودنا السياسية والثقافية لمصلحة الكفاح الفلسطيني من اجل تقرير المصير . ولا اقصد التلميح هنا الى ان كسب اهتمام بضعة اعضاء من الكونغرس هو مضيعة للوقت ، او ان زيادة المصاعب في وجه

٨ Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon, 1978).

* بحثتُ هذه المسألة مطولا في الفصل الاول من كتابي :
The Question of Palestine (New York: Times Books, 1979).

اللوبي الصهيوني هي نشاط يجب التخلي عنه ؛ ان هذه نشاطات يجب ان تمارس . ولعل هذا هو ما يحدث فعلا . ولكن في المقياس نفسه ، اريد ان اقول انه في النهاية لا وزارة الخارجية ولا الرئاسة حليفنا الطبيعي . ولكن اذا اردنا ان نترجم كفاحنا كفلسطينيين الى اكثر من مجرد قضية سياسية صغيرة ، واذا نظرنا الى ما نفعله كجزء من القضايا الاكبر – وهي القضايا المتعلقة بالحرية الانسانية العامة والعدالة الاجتماعية – وجب علينا ان نركز جهودنا في نقاط التقارب تلك في الحياة المدنية الاميركية التي تتطابق بصورة طبيعية مع نشاطاتنا الموجهة ضد القمع ومن اجل التحرير . وان ما افكر فيه لهو التقاليد المركزية التحررية المناوئة التي ما زالت قائمة في قلب الثقافة الاميركية ، والتي ما زالت تعمل ، والتي ما زالت وبحق تمارس نفوذا قويا مشرفا على الثقافة هذه ، على الرغم من النضوب والفقر اللذين اشرت اليهما باعتبارهما سيطرا على هذه الثقافة في السبعينات . اذن الى ماذا اشير ؟

من الاسهل البدء بتحديد ما لا اشير اليه . من الواضح انني لا اقصد تلك الجماعات وأولئك الاشخاص الذين يعبرون ، لاسباب مختلفة ، عن نظريات او عواطف معادية للسامية . ان اللاسامية – او اية نظرية عرقية من ذاك القبيل – هي عدونا الطبيعي بقدر ما هي عدو اليهود . وهذه مسألة تكاد تكون بديهية . ويسرني ان اقول استطرادا : ان المنظمة العربية الرئيسية التي انتمي اليها ، وهي رابطة خريجي الجامعات الاميركية ، سجلت علنا ادانتها للمسيرة التي اقترح الحزب النازي الاميركي القيام بها عبر مقاطعة سكوكي ، في ايللنوي – وهي ضاحية من ضواحي شيكاغو اغلبية سكانها من اليهود . وفي الدرجة الثانية ، اقول : انني لا اقصد ان يكون تحالفنا مقتصرا على الاحزاب اليسارية الصغيرة المتعددة الكثيرة وغير المتماسكة حاليا ، او ان يكون تحالفنا معها تحالفا استراتيجيا ، فهذه الاحزاب – مهما يكن دورها الانتقالي مهما في لحظة ما من التاريخ الاميركي – هي احزاب سريعة الزوال ، تميل الى الطائفية والتقسيم اكثر من ميلها الى اي شيء آخر ، وتميل الى النشاط النظري اكثر مما تميل الى النشاط السياسي ، وهي اكثر ميلا الى البيوريتانية والتدقيق في صغائر الامور من الميل الى ان تصبح احزابا جماهيرية . ثالثا ، لا يمكننا **الاعتماد** على اي شيء يسمى اللوبي ، لان اللوبي – كما اشرت سابقا – ميال الى ان يكون شأنا هامشيا ، اذ هو جماعة ضغط محترفة مرتبطة عادة إما بقضية مشكوك فيها بحاجة ماسة الى محركين مأجورين ومكشوفين واضحي الاخفاق (مثلا اللوبي الصيني

الذي يعمل لمصلحة تايوان) ، وإما مرتبطة بقضية جماهيرية عامة (مثل لوبي المستهلكين الذي يرئسة رالف نادر) . ولقد بلغ اللوبي الصهيوني الآن نقطة اصبح فيها مصدرا شبه محرج حتى لأكثر الموالين للصهيونية تحمسا في اميركا . اذ هناك [في اميركا] اليوم تعدد في الرأي وتنوع في النقاش ضمن الجالية اليهودية المنظمة ، اكثر مما يمثله اللوبي الصهيوني . ولم تعد اغلبية الناس ترى ان هذا اللوبي يمثل مزايا الصهيونية ، وانما تراه يعزز موقف بيغن ويسهل الامور على بعثات الشراء العسكرية الاسرائيلية الى الولايات المتحدة ، الخ ... وقد تبين اخفاق اللوبي هذا تماما في مسألة المستوطنات اليهودية في الاراضي المحتلة ، والسبب في ذلك بسيط ، وهو ان اللوبي يبدو محاميا مأجورا لمشروع غير قانوني ، مفارق للتاريخ ، قائم على ما يبدو انه سياسة ثيوقراطية تراجعية مرتكزة على العهد القديم .

ولئن كان اللوبي الصهيوني الآن يبدو شاذا قديم العهد ، فكم بالاحرى اللوبي العربي ؟ انه غير منظم ويفتقر الى المتخصصين ، وهو متضخم فوق اللازم ، كما انه بائس في عروضه المهترئة على الشعب الاميركي . وقصارى ما بلغه هو ان يكون امرا هامشيا للغاية ، وهو قائم – في رأيي – من اجل ان يدعو الناس الى الغداء لا ليقودهم الى الحقيقة . ولانه لا يملك الجاذبية الجماهيرية ولا يستخدم التكتيك الجماهيري مثل جماعة نادر مثلا ، فسيظل يبدو دائما – من حيث هو لوبي – يروّج لقضية صغيرة مشكوك فيها ، اذ ان الناس سيقولون : اذا كان الامر حقا كما يقول اللوبي ، فلماذا تعتمد القضية العربية ، الى هذا الحد ، على محترفي العلاقات العامة المأجورين للقيام بعملها ؟ لماذا لا تكتسب قوتها من مجموع السكان ؟ والاجابة عن هذا واضحة لكل من يعيش في اميركا ؛ انها لا تكمن في مؤامرة صهيونية يمكننا ان نلقي اللوم عليها .

وبعد ان شرحت ما لست اقصده عندما اشير الى التقليد المناوىء التحرري ، فما هو الذي اقصده اذن ؟ انني اقصد ، اولا ، ان المجتمع المدني الاميركي ليس اطلاقا وببساطة شيئا متجانسا متناغما ، اذ ان فيه مجموعة من المؤسسات والتقاليد والافراد التي رفضت الاذعان للوضع القائم وذلك لاسباب كثيرة مختلفة ، تاريخية واقتصادية واجتماعية معا ، ليس هذا مجال البحث فيها . وأهم ما يميز هذه المجموعة هو ان فلسفتها وتشكلها ونشاطها كانت دائما ، وأكرر **دائما** ، تقوم في قلب الحياة الاميركية . انها تقليد **محلي** ، وهي ليست مرتبطة بأية قوة اجنبية او هامشية ، وان كانت هذه القوى الهامشية

الخارجية قد قامت بدور تثقيفي مهم داخلها . انها ليست جماعة قائمة اساسا ضمن التيار الاساسي للحركة العمالية ، مثلا ، على الرغم من ان ضمن الحركة العمالية المنظمة جماعات وأفرادا يشكلون جزءا من التقليد المناوىء التحرري – اشخاصا مثل : اوجين دبس ، وسيزار شافيز اليوم . وهذا التقليد ليس بالضرورة تقليدا يساريا ، على الرغم من ان جانبا كبيرا منه بالتأكيد ذو ميول يسارية عامة – وأستدرك بسرعة فأقول : ذو ميول يسارية بالمفهوم الاميركي ، وليس دائما وبالضرورة بالمفهوم الكلاسيكي الماركسي ، والمفهومان مختلفان تماما . فهذه الجماعة المناوئة التحررية اذن تشكلها وتقودها اساسا دواعي الضمير الفرعي والشهادة ، كما حددها الدستور واعلان الاستقلال – اي تلك الجوانب من الوثيقتين التي تؤكد ، كما جادل غاري ويلز بصورة مفحمة للغاية في كتاب صدر حديثا ،[٩] الطابع المشترك العقلاني الهادف الى اعلاء شأن العدالة في الجمهورية الاميركية عند ولادتها . ان هذا الطابع اذن يلطف بعض الشيء من جوانب التنافس الفردية العارية ، الحتمية ، العطشة الى الدماء اجتماعيا ، والتي صرح بها اعلان الاستقلال ايضا .

وفي هذا التقليد نجد شريكا ملهما في نضالنا كفلسطينيين . فمن ضمن الدعامات التاريخية لهذا التقليد : لينكولن ، في مقابل – مثلا – ثيودور روزفلت ؛ واتحاد الحريات المدنية الاميركية ، في مقابل لجنة النشاطات اللاميركية المكارثية التابعة لمجلس النواب ؛ وجميع التقاليد العظيمة المناوئة للحرب الموجودة لدى افراد في بداية هذا القرن مثل راندولف بورن ، والتي تستمر في ائتلاف السلام الهائل المضاد للحرب الذي تشكل خلال الفترة الفييتنامية . وهو تقليد لا يضم أفرادا مثل : د . سبوك ؛ أ . ج . ماست ؛ بول غودمان ؛ نوعام تشومسكي فحسب ، بل يضم ايضا روابط مثل : « قاوم » (Resist) ؛ رابطة مقاومي الحرب (War Resisters League) ؛ لجنة خدمات الاصدقاء الاميركيين (American Friends Service Committee) ؛ رجال الدين والدنيا المعنيون (Clergy and Laity Concerned)؛ الائتلاف المضاد للحرب (Anti-War Coalition)؛ مجلات مثل *The Nation* و *The Progressive* . ويضم ايضا – اضافة الى ذلك – مشاعل اكاديمية وفكرية مثل : ويليام ابلمان ويليامز ، الذي رأس الرابطة التاريخية

---

٩ Garry Wills, *Inventing America: Jefferson's Declaration of Independence* (New York: Doubleday, 1978).

الاميركية سابقا ، وغابريل كولكو والمرحوم نورمان توماس وهاري ماغدوف وبول سويزي من مجلة *Monthly Review* وستادز تيركل – وجميعهم يطلق عليهم اسم التصحيحيين (revisionists) ، ويعملون في مركز الحياة الثقافية والفكرية الاميركية . وعلينا ايضا ان نذكر رالف نادر طبعا ، وعلماء آخرين وشخصيات عامة نشيطة وفنانين كثيرين [من امثال] : ريتشارد فولك وتيلفورد تيلور وديفيد دلنجر وبارينغتون مور والن غنزبرغ وكريستوفر لاش وغاري ويلز وغريس بيلي و أ. ف. ستون ونورمان ميلر ، وغيرهم . كما ان هناك عددا كبيرا من المؤسسات [يمكن اعتباره في هذا التقليد ايضا] ، من مؤسسة الدراسات السياسية الى مؤسسة ابحاث شاطىء المحيط الهادي ولجنة حقوق الانسان الفلسطينية وعدة جماعات مناوئة من السود يتزعمها اشخاص مثل اندرو يونغ وجسي جاكسون ورالف ابرناثي ، وأعضاء محددون من المؤتمر الانتخابي للسود . ويبني هؤلاء السود سلطتهم الموروثة على اشخاص مثل : و. ا . دوبوا ، مؤسس دراسات السود في اميركا ، وعلى اشخاص آخرين مثل : بول روبنسون وماركوس غارفي ، وطبعا مارتن لوثر كنغ .

وليس هناك من طريقة بسيطة لتصنيف هذا القطاع من المجتمع المدني الاميركي الغني المهم بدرجة غير عادية ، [ولا يمكننا] سوى ان نصفه ، كما اشرت من قبل ، بأنه يقوم بدور رئيسي في تشكيل روح الشعب القومية ، ومنه تنبع معارضة المواقف التوفيقية تجاه مغامرات التدخل الخارجية التي تقوم بها الدولة ومعارضة الحرب عامة وسوء استعمال حقوق الانسان اينما وحيثما يحدث ذلك . كما تنبع منه معارضة اخلاق النخبة الاستهلاكية المتحدة وسياسات الاجماع الدجالة الواسعة الانتشار عامة التي تنفذها وسائل الاعلام والخبراء الحكوميون المتخصصون بعمليات اسباغ الشرعية ، [وكلها ينتهي] محاولات اختزال دور الجامعة والقانون والفرد – من اي لون او عرق او معتقد – وتحويله الى موقف الخضوع في مواجهة الدولة وجماعات المصالح الخاصة والاكثرية المستبدة .

ان هذا التقليد – التحرري المناوىء المعارض – قائم فعلا ، وهو ينتعش الآن حتى في وضع الركود الخلقي الفكري الحالي الذي صورته . أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية – وهو ما يأتي قبل كل شيء آخر – فانه لم يتم بعد اللجوء اليه والبحث عنه وجعله طرفا في الحوار . لقد اعتمدت القضية الفلسطينية على الصحافة وعلى عقلية المصلحة الخاصة والقضية المنفردة التي تجسدها فكرة اللوبي . وفوق كل شيء ، تراني اعتقد – وهذا

هو هدف ملاحظاتي هنا – اننا كفلسطينيين لم نتعرف حقا وجود اميركا الاخرى ، فضلا عن تعرف عملها وقدراتها الكافية . لكنكم ستتساءلون اذن ، كيف نتجه الى مخاطبة اميركا الاخرى هذه ، وكيف نضمها الى صفوفنا ؟

دعوني اختتم هنا بمحاولة للاجابة عن هذا السؤال . قد يأتي مفاجئا قولي انه بسبب بعض جوانب التاريخ ومعظم السمات التي وضعتها ، يقف التقليد المعارض في المجتمع الاميركي على اهبة الانتظار والتهيؤ للوقوف الى جانب الكفاح الفلسطيني من اجل تقرير المصير . ولمَ لا ؟ أليس هذا التقليد تقليدا مهتما ابتداء بالعدالة وحقوق الانسان ، ومعارضا بشكل راسخ للتمييز العنصري والتدخل الاجنبي ، وشجاعا في استعداده للتعبير علنا ومن دون تحفظ [عن مواقفه] ؟ أَوَلا يضم كفاحنا هذه القضايا كلها ؟ هذه مسألة . ومسألة اخرى اود ان اجادل فيها ، وهي ان الاخلاص للضمير ولحرية الانسان الحقة التي يجسدها هذا التيار المحلي المعارض ، هو المسؤول عن اي رواج وأهمية خلقية وإلحاح يميز الآن القضية الفلسطينية في اميركا . وسنكون مخطئين تماما اذا ما اعتقدنا ان الفضل في الاهتمام الرئيسي الاميركي اليوم بالقضية الفلسطينية يرجع الى مصرف تشيس مانهاتن او الى وزارة الدفاع . اذ ان هناك من بين العوائق المحلية الكثيرة المفروضة على السياسة الخارجية الاميركية – التي لولاها لكانت اكثر اندفاعا في عسكريتها وطاقتها الاستعمارية – الوعي الكامن بين من يوصفون بصانعي السياسة بأن الانصاف والعدل **لهما** جمهور في صفوف الشعب الاميركي ، وان هذا الجمهور ، على الرغم من انه قد يبدو ضئيلا في بعض الاحيان ، إلا انه موجود بين الاشخاص والتقاليد التي كنت اعرضها ، وليس مختبئا بالتأكيد في قلب عقل الكتروني في وكالة الاستخبارات المركزية . لقد كنت أؤمن دائما ، وما زلت اؤمن ، بأنه فيما يتعلق بالولايات المتحدة ، تحتفظ المقاومة الفلسطينية للوحشية الاسرائيلية بأقوى قواعدها وأصدقها هناك – في التقليد المعارض ضمن المجتمع المدني الاميركي ، لا بين المحللين العسكريين او السياسيين ، ولا في داخل مجتمع الاعمال حيث توزن المصالح العرضية له في العالم العربي بميزان اهتمامه بدولارات النفط فحسب . وما اقوله هو ان الكفاح من اجل حق تقرير المصير الفلسطيني يتم خوضه هنا اساسا طبعا ، على ارض الشرق الاوسط . لكن من حيث انعكاسه والتأثير فيه ، في داخل الولايات المتحدة ، يجب ان يسعى في النهاية لتحريض الجوانب المفيدة الصلبة في المجتمع المدني ضد الانتهاكات وقصر النظر والتلاعب الدنيء الذي يمارسه ليس المجتمع

الاميركي وحده فحسب بل ايضا تلك الطبقة من مدراء الازمات التي دمرت هيمنتها الخلقية المفلسة الهند الصينية .

ان كل مجتمع وكل ثقافة يترجم تصوره للشعوب وللمشكلات الخارجية الى كلمات ومصطلحات وقضايا محلية . ان تصورنا لانفسنا كفلسطينيين يختلف بصورة واضحة عن تصور الاميركي لنا . ولا يعني هذا اننا لا يمكن ان نُترجَم الى قضايا تعني الاميركي والاميركية . واعتقد انها مسألة ايمان من جانبي ، ان الانسان قادر في النهاية على الفهم العقلاني والانساني ، وعلى الانصاف ، وعلى التمسك ببعض المثاليات العامة المشتركة بين الجنس البشري بأجمعه . ان الانجازات الهائلة والنجاحات التي حققتها الحركة الوطنية الفلسطينية خلال السنوات العشر الماضية ، لا ترجع في رأيي ببساطة الى اعمال الشجاعة العسكرية الفردية فحسب ، بل ترجع ايضا الى تعبئة شعبنا جماهيريا من اجل برنامج شامل يعاهد على القتال وانهاء التمييز العنصري والاقتلاع والتزوير الايديولوجي بأسوأ انواعه . ان كفاحا نبيلا ومتحمسا كهذا لا يمكن ان نحبسه داخل لوبي ، ولا يجب السماح له بأن يوضع في غيتو القومية المتطرف وضيق الافق فلسفيا . وفي اميركا كلما قصرنا جهودنا على القضية الوطنية المنفردة للكفاح الفلسطيني ضد الصهيونية ، وقعنا فريسة للقيود المفروضة على كفاحنا من قبل الصهيونية نفسها ، وعندها نصبح هامشيين وصغارا ونفقد اهميتنا . ولكن من جهة اخرى ، اذا عملنا من اجل توسيع موقفنا ليضم بالضبط النوع نفسه من التقاليد والاشخاص في اميركا الذين يماثلوننا هناك ، تصبح قضيتنا اقوى وتصعب مقاومتها . ولست اتحدث هنا عن الدعاية ، كما لا يمكن ان يحمل ما اقوله على محمل الدعاية . ان المجتمع المدني الاميركي ينتظر ان يسمع منا عن نوع تقرير المصير الذي نرغب فيه ، وشكل الحياة التي نكافح من اجلها ، وأية حقوق انسان نعد شعبنا بها ، وما هي الرؤية التي نملكها جميعا للعدالة الاجتماعية .

وبكلمات اخرى : علينا ان نتحدث بأعلى صوت وبأكبر قدر ممكن عما نؤيده وعما نعارضه . لقد كنت دائما فخورا بالدفاع عن حلم الدولة الديمقراطية العلمانية ، وستدهشون عندما تعرفون ان الاشخاص الذين يسألون عن هذه الفكرة يتزايدون ، لان لها أصداء حارة داخل التقليد الاميركي ، بل داخل افضل التقاليد الانسانية في كل مكان . ولكن لا يمكن القيام بعرض وبصدى من هذا النوع من دون شيء من الوعي العقلاني المدروس الحذر (من جهتنا كمناصرين فلسطينيين) لاية اميركا نخاطب . ان التاريخ

والمجتمع في النهاية يصنعهما رجال ونساء طبعا ، وجوانب معينة من التاريخ والمجتمع يصنعها رجال ونساء معينون . ولا يكفي القول : سوف نحارب وسيلتفت العالم كله الى كفاحنا . ان أجزاء معينة من العالم لا تستطيع ان تسمع ، ولا يجب ان تسمع ، خطابنا . ان المجتمع في اعماقه امر مادي ، على الرغم من انه ليس محكوما بقوى آلية عمياء . وعلينا ان نوجه انفسنا بجد الى دراسة تلك الجوانب من المجتمع المدني الاميركي التي يمكن ان تهتم برسالتنا ، بل تلك التي تحتاج بالتأكيد الى إلهامنا بقدر ما نحتاج نحن الى إلهامها . وعلينا ان نحلل ، وأن نميز ، وأن نخلق جمهورنا المناصر . ان هذه نشاطات ثورية ، ولا يمكن ان نعهد بها الى مستخدمي العلاقات العامة . ان نشاطي الخاص – اذا سمحتم لي بالادلاء بملاحظة شخصية متواضعة – هو نشاط عامل ثقافي ملتزم لا بالكفاح الفلسطيني وحده ، بل بجميع انواع النضال المشابهة ضمن المجتمع الذي احيا فيه .

ان ما كنت ابحث فيه مشروع صعب ، وكثيرا ما يثبط العزيمة ويواجه بمعارك . ان الفلسطينيين يعرفون ، عقلانيا ، ان الاحتمالات ضدهم – لكن ثقتهم في عدالة قضيتهم وصدقها ، من جهة اخرى ترسم صورة اكثر اشراقا : انه – كما قال غرامشي – تشاؤم الفكر وتفاؤل الارادة . ان الاحتمالات ضد القضية الفلسطينية في اطار الرؤية (المجتمع) الاميركي عظيمة جدا . ومجرد الحقيقة انه لكي نتحدث عن الحقوق الفلسطينية علينا ان نتعامل مع المشكلة اليهودية ، يشير الى مدى كون كفاحنا غير موجه ضد حركة استيطانية استعمارية « عادية » . وعلى الرغم من ان الاسرائيلي في اعيننا مضطهِد ، فان شعبه كان ضحية اضطهاد عنصري ودمار جماعي رهيب . لكن هناك اعمال ملموسة قامت بها الصهيونية واسرائيل بحق العرب ، وهذه تشكل جريمة تاريخية شائنة بحقنا . والاعظم منها ، هو الارادة الفلسطينية للتغلب على هذه الجريمة ، وتمكين الوجود الادبي الفلسطيني من ان يَعُم . وقبل بضعة ايام قرأت جملة في دراسة للدكتور قسطنطين زريق ، تركت لدي انطباعا عظيما : لقد كان يتحدث عن الحاجة بين العرب الى « معرفة شاملة قوية ممزوجة بايمان متقد » .[١٠] ان الصراع ، هنا وفي اميركا ، لا يمكن ان يعرض بشكل افضل من هذه الجملة .

---

١٠ Constantine K. Zurayk, *Tensions in Islamic Civilization,* Seminar Paper No. 3, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1978, p. 20.

أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سلسلة دراسات تحليلية يعدها باحثون في المؤسسة وسواهم من المختصين حول جوانب معينة بارزة للقضية الفلسطينية والصراع العربي – الصهيوني .

تتناول هذه الدراسة الاطار العام للآراء المختلفة في الولايات المتحدة بصدد القضية الفلسطينية . وينطلق المؤلف الاستاذ ادوارد سعيد من النظرية القائلة ان المجتمع الاميركي – شأنه شأن اي مجتمع صناعي رأسمالي متطور – ينقسم مجتمعين : سياسي ومدني . يتألف المجتمع السياسي من الحكومة والجيش والامن والبيروقراطية ، ويمثل قوة امبريالية تتبع سياسة معادية للقضايا العربية عامة وللقضية الفلسطينية على وجه الخصوص . اما المجتمع المدني فيتألف من المؤسسات الثقافية والجامعية والدينية والنقابية وما الى ذلك ، ويلعب دورا بارزا في توجيه السياسة الاميركية . وقوة الصهيونية ، كايديولوجيا وفكر ، ترتكز آخر الامر على هذا المجتمع ، اكثر مما ترتكز على المجتمع السياسي . وقد بدأ المجتمع المدني يشهد تحولات ايجابية فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني ، وذلك في اطار التحول العام الذي طرأ عليه منذ الستينات في اتجاه الاهتمام بالعدالة وحقوق الانسان ومعاداة الحرب ، الخ . ولكن الحاجة لا تزال قائمة للتصدي لمواقف سلبية ترى في الفلسطينيين ارهابيين او ما شابه . وعليه يرى الدكتور سعيد ان المجتمع المدني ، لا السياسي ، هو الذي ينبغي ان يكون هدفا للتحرك الاعلامي للنضال الفلسطيني في هذه المرحلة .

ادوارد سعيد استاذ الادب الانكليزي والادب المقارن في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة . عمل استاذا زائرا في جامعة هارفارد ، كما حاضر في عدة مؤسسات علمية اميركية . له مؤلفات عدة ، احدثها : « الاستشراق » (١٩٧٨) ، و « قضية فلسطين » (١٩٧٩) . ولد الدكتور سعيد في القدس ، وهو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني ، وكان خلال شهري تموز وآب (يوليو واغسطس) ١٩٧٩ ، باحثا زائرا في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت .